

## الفصل الأول



لقد حكم السحر العالم قبل أن أكتشف معجزة العلم.  
كان السحر وما رافقه من غموض حاضرين في الأجواء على  
الدوام، مانحين أيّ أول ذكرياتي أيام الطفولة (أنقذني والدي حينها  
من موت محتوم، فحظي بلقب البطل الذي ما زال يلزمه حتى اليوم).

كنت في السادسة من عمري ألعب في الشارع. اقترب منّي بعض الرعاة من الصبية  
الذين كانوا يغنون ويرقصون. كان ذلك في قرية ماسيتالا القريبة من مدينة كاسونغو، حيث  
كانت عائلتي تعيش في مزرعة. كان هؤلاء الرعاة يعملون لدى مزارع يسكن قريباً، ويمتلك  
كثيراً العديد من الأبقار. وقد أخبروني عن كيفية اعتنائهم بالقطيع حينها، وعن الكيس  
الكبير الذي وجدوه ملقّى على قارعة الطريق، وتبيّن لهم - بعد فتحه - أنه مليء بالعلكة.  
أتخيّل كنزاً كهذا؟ كنت أحبّ العلكة كثيراً.

سأل أحدهم: هل نعطي الصغير بعضاً منها؟

حبست أنفاسي، ولم أتحرّك. كانت هنالك أوراق أشجار ميتة عالقة في شعري.

قال آخر: لم لا؟ انظر إلى حاله.

وضع أحد الصبية يده في الكيس، ثم أخرج حفنة من قطع العلكة، واحدة من كل لون،  
ثم وضعها في يدي. دسست القطع جميعها في فمي. غادر الصبية، وأحسست بالعصارة  
الحلوة تنزلق من ذفتي وتلطخ قميصي.

في اليوم اللاحق، كنت ألعب تحت شجرة المانجو، حين توقّف تاجر يركب درّاجة هوائية قرب والدي، وأخذ يجاذبه أطراف الحديث. قال بأنّه أسقط أحد أكياسه حينما كان عائداً من السوق في اليوم السابق. وعندما أدرك ما حدث، وعاد لبحث عنه، كان الكيس قد اختفى. ثمّ أضاف قائلاً: إنّ الكيس كان مملوءاً بالعلكة.

وكان بعض التجّار قد أخبروه عن صبية رعاة يوزّعون العلكة في القرى، الأمر الذي أغضبه جداً. إنّهُ يجول في المنطقة منذ يومين على درّاجته الهوائية بحثاً عن هؤلاء الصبية. وها هو ذا يُطلق تهديداً مخيفاً: لقد ذهبت لمقابلة سينغانغا، وكلّ مَنْ أكل شيئاً من العلكة سيندم. كانت سينغانغا هي العرّافة.

كنت قد ابتلعت العلكة منذ وقت طويل. وقد أصبحت ذكراها الحلوة الآن كسم مرير يسري على لساني. بدأت أنصبّب عرقاً، وأخذ قلبي يخفق بشدة. ركضت من دون أن يلحظني أحد نحو أجمة أشجار اليوكالبتوس خلف منزلي، انحنيت على شجرة، محاولاً التخلص من الدليل. بصقت، ثمّ وضعت إصبعي في حلقي، فعلت كلّ شيء لتخليص جسدي من اللعنة. أفرغت ما في جعبتي، في الوقت الذي لَوَّن فيه لعابي بعض أوراق الشجر عند قدمي، فأخذت أغطّيها بالتراب.

ولكن، بدا حينها أنّ غيمة سوداء قد غطّت الشمس، وشعرت أنّ العين العظيمة للساحرة تراقبني من بين الأشجار؛ لقد أكلت حلواها. لذا، فأنا الآن معرّض لغضبها ولعنتها. زارتني المشعوذات تلك الليلة في أثناء نومي، حيث أخذنني على متن طائراتهن، وأجبرنني على القتال، ثمّ تركنني للموت في ساحات القتال السحرية. وبينما كانت روعي تهيم وحيدة فوق الغيوم، صحوت في الصباح وجسدي يرتعش من شدة البرد. لقد أحاط بي الخوف من الموت مثل الحمّى.

بدأت أبكي بشدة لدرجة أنّني لم أستطع تحريك ساقي. انهمرت الدموع ساخنة على وجهي، ما جعل أنفي يزكم برائحة السم. لقد كان يسري في مختلف أنحاء جسدي. هربت من الغابة بأقصى سرعة؛ محاولاً التخلص من العين السحرية الكبيرة. جريت حتى وصلت

المنزل لأجد أبي مستنداً إلى الجدار ينتف كومة الذرة. أردت أن أرمي بجسدي عليه كي يحميني من الشيطان.

قلت وأنا أسترسل في البكاء: « لقد كنت أنا. أنا من أكل العلكة المسروقة. أبي، لا أريد أن أموت. لا تدعهم يأخذونني».

نظر إلي والدي هنيهة، ثم هز رأسه.

قال: هو أنت إذن!، ثم ارتسم على وجهه ما يشبه الابتسامة.

ألم يدرك أنّ أمري قد انتهى؟

قال: حسناً. ثم نهض عن كرسيه. كانت ركبته تطقطان كلما نهض. كان والدي رجلاً ضخماً. ثم حدجني ببصره قائلاً: لا تقلق، سأبحث عن التاجر، وأشرح له ما جرى. أعتقد أننا سنجد حلاً».



مشى والدي في تلك الظهيرة مسافة ثمانية كيلومترات للوصول إلى مكان يُدعى ماساكا حيث كان يعيش التاجر. أخبره بما حصل، وكيف أنّ الفتية الرعاة هم الذين أعطوا ابنه بعض العلكة المسروقة. بعدئذٍ، دفع والدي ثمن الكيس كاملاً من دون نقاش؛ مبلغ يوازي أجر أسبوع.

في تلك الأمسية، وبعد أن تمكّن والدي من إنقاذي، سألته عن اللعنة، وعمّا إذا ظنّ فعلاً أنّها قد استحوذت على نفسي وحياتي، فارتسمت على مِحْيَاه ملامح الجدية، ثم قال: نعم، لقد عالجننا الأمر في الوقت المناسب. ثم انفجر ضاحكاً على نحوٍ أدخل

صورتني طفلاً أقف مع أبي في قرية ماسيتالا. كان الرجل الأضخم والأقوى في العالم بالنسبة إليّ.

السرور في قلبي. وكان الكرسي الخشبي يئن بفعل الحركة الناجمة عن صدره الضخم. ثم أضاف: مَنْ يدري ما كان ينتظرك يا ويليام؟.

كان أبي قوياً، ولم يكن يهاب السحر، لكنّه كان على علم بالقصص التي تتعلق به. كنّا نشعل مصباحاً، ونتخلّق حوله في غرفة المعيشة في أثناء الليالي غير المقمرة. كنت أجلس أنا وشقيقتي عند قدمي والدي الذي كان يشرح لنا كيف تسير الأمور في هذا العالم، وكيف أنّ السحر موجود منذ بدء الخليقة. ثمّ أخبرنا أنّ بلاد المزارعين الفقراء، كانت تتنّ تحت وطأة المشكلات والصراعات التي تدور رحاها بين الربّ والإنسان. لذا، عُدد السحر قوّة خارقة تالفة لإيجاد توازن في العالم. لم يكن السحر شيئاً تبصره العين، مثل شجرة أو امرأة تحمل الماء، إنّما كان قوّة خفية مهلّكة، مثل الريح، أو شبكة العنكبوت التي غزلت خيوطها جانب الطريق. كان السحر حاضراً في القصص، وكنت أفضل قصة الزعيم موسي ومعركة كاسونغو.

حكم شعب تشيوا السهول الوسطى منذ بداية القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا. وقد نرحنا إلى هناك منذ عشرات السنين قادمين من جنوبي الكونغو في زمن سادت فيه الحروب والأمراض، واستقر بنا المقام في تلك البقعة، حيث التربة حمراء خصبة والنهار طويل.

في أثناء تلك الحقبة، وفي المنطقة الشمالية الغربية من قريتنا تحديداً، بدأ وحيد قرن أسود متوحش يعيش في الأرض فساداً. وقد تميّز هذا الحيوان بضخامة حجمه الذي كان يفوق حجم الشاحنة، وبقرنيه الطويلين اللذين يشبهان ذراعي والدي، والحادّين كالخناجر. كان الناس والحيوانات حينها يطفئون ظمأهم من النبع نفسه، في حين كان وحيد القرن يغمر نفسه في المياه الضحلة متربّصاً.

كان زوّار النبع عادة من النساء والبنات، مثل أمي وشقيقتي. وبينما كنّ يهمنّ بوضع دلائهم في الماء، كان وحيد القرن يهاجمهنّ، ويُعمل الطعن فيهنّ، ويسحقهنّ بحوافره الجبّارة، ويحوّلهنّ إلى مجرد أشلاء غارقة بالدماء. لقد قتل وحيد القرن الأسود هذا ما يزيد على مئة شخص خلال أشهر عدّة.

وحين قُتلت إحدى فتيات عائلة تشيوا الحاكمة سَحَقاً تحت حوافره عند النبع في ظهيرة أحد الأيام، غضب الزعيم وقرّر الانتقام، فجمع حكماؤه ومقاتليه لوضع خطة محكمة.

قال الزعيم: إن هذا المخلوق شرّ صرف. كيف لنا أن نتخلص منه؟

كان هنالك كثير من الآراء، لكنّ أحدها لم يُعجب الزعيم. ثمّ وقف أحد مساعديه أخيراً ليقول: أعرف رجلاً في ليلونغوي. إنّه ليس زعيماً، لكنّه يمتلك بعض بنادق أزونغو، إضافة إلى أنّه ماهر جداً في شؤون السحر. أنا على يقين أنّ حساباته وخبراته في هذا المجال قادرة على هزم وحيد القرن الأسود.

عُرف ذلك الرجل باسم مواسي تشيبهاودزو، وكان مشهوراً في مختلف أرجاء المملكة؛ نظراً إلى تفوّقه في مجال السحر، حتى إنّه كان يصيد بالسحر. اسمه يعني العشب القاتل؛ لأنّه كان قادراً على التخفي بصورة كومة من الأعشاب للإيقاع بفريسته. قطعت جماعة الزعيم مئة كيلومتر للوصول إلى ليلونغوي واستدعاء مواسي، الذي وافق بدوره على مساعدة أخوته في كاسونغو.

وصل مواسي إلى النبع صبيحة أحد الأيام قبل شروق الشمس، حيث وقف بين الأعشاب الطويلة قرب الضفة، ثمّ رشّ ماءً سحرياً على جسده وبنديقيه؛ ما جعله يختفي وسلاحه، وأصبحا مجرد موسيقا يحملها النسيم. جاء وحيد القرن بعدها بدقائق مزمجراً من على التل وسار باتجاه النبع. وفي اللحظة التي غطس فيه بجسده الثقيل في المياه الضحلة، تسلّل مواسي خلفه وأطلق النار على رأسه، فخرّ وحيد القرن صريعاً.

بدأت الاحتفالات فوراً بتناول القرويين كافة - وعلى مدار ثلاثة أيام - لحم الوحش الفظيع الذي قضى على كثير من الأرواح. وفي ذروة هذه الاحتفالات، أخذ الزعيم مواسي إلى قمة أعلى التلال لينظر إلى مناطق نفوذ شعب تشيوا. كان ذلك تلّ موالا و نينجي، الذي يعني صخرة الذباب الصالح للأكل، والذي سُمّي بذلك تيمناً بالمنحدر الموجود على قمّته، وبالذباب السمين الشهي الذي يعيش على الأشجار هناك.

وقف الزعيم على قمة صخرة الذباب الصالح للأكل، مشيراً إلى قطعة أرض كبيرة مليئة بالأعشاب، ثمّ التفت إلى مواسي قائلاً: سأمنحك جائزة؛ لأنك قتلت الوحش الفظيع.

إنتي أمنحك السلطة على هذا الجزء من الجبل، وعلى كل ما تقع عليه عيناك من على قمته. اذهب وأحضر أهلك واجعل هذا المكان وطنك. إن هذه الأرض تحت حكمك الآن.

عاد مواسي إلى ليلونغوي وجلب عائلته. وبعد وقت قصير، تمكّن من تأسيس إمبراطورية عظيمة. وتمكّنت مزارعه من إنتاج كميات وافرة من الذرة والخضروات أطعمت سكان المنطقة بأكملها. كان أفراد شعبه أقوىاء، ومحاربوه أشداء مهيبين الجانب.

ولكن، في ذلك الوقت اندلعت فوضى كبيرة في مملكة زولو بجنوب إفريقيا؛ إذ بدأ الجيش التابع لشاكا؛ ملك زولو، حملة دموية لغزو الأراضي المحيطة بالمملكة، فأجبر الخوف والدمار ملايين الناس على النزوح، وكان من ضمنهم شعب نغوني.

توجّه شعب نغوني نحو الشمال مشياً على الأقدام لأشهر عدّة حتى وصلوا أخيراً إلى مناطق تشيوا حيث التربة رطبة وخصبة. لكنّهم كانوا يعانون المجاعة على مدار الساعة بسبب ترحالهم المتواصل. وكانوا كلّما حدث ذلك، جاسوا في مناطق الشمال أكثر؛ طالبين المساعدة من الزعيم مواسي الذي كان يُمدّهم بالذرة والماعز. وفي أحد الأيام، وبعد أن حظوا بأعطية أخرى من مواسي، جلس زعيم شعب نغوني متسائلاً: كيف لنا أن نحصل على هذا الطعام بصورة دائمة؟

أجاب أحدهم: نقضي على شعب تشيوا.

راقت الفكرة للزعيم ناوامبي، فقداد شعبه للسيطرة على صخرة الذباب الصالح للأكل، وعلى كل الأرض التي يمكن رؤيتها من على قمة الصخرة. لكنّهم لم يكونوا على دراية بقوى السحر التي يمتلكها الزعيم مواسي.

لم يمضِ وقت طويل حتى صعد أفراد جيش نغوني - في صباح أحد الأيام - الجبل، مرتدين جلود الحيوانات، حاملين دروعاً ضخمة في يد ورماحاً في الأخرى. ولكن، تمكّن جنود مواسي من رؤيتهم من على بُعد أميال عدّة. وحين وصل جيش نغوني إلى التلّ، كان جنود مواسي قد تخفّوا على هيئة عشب أخضر، وتمكّنوا من ذبح الغزاة بالسكاكين والرماح. وكان آخر قتلاهم هو الزعيم ناوامبي. لذا، فقد غيّر اسم الجبل ليصبح «نغوروي»

ناوامبي»، الذي يعني «هزيمة ناوامبي الشنعاء». وهذا التل الآن يُطلُّ مدينة كاسونغو التي تقع قرب قريتي.

تناقل الكبار والصغار مثل هذه القصص عبر الأجيال المتعاقبة، حيث تعلّمها أبي من والده (جدّي)، الذي كان طاعناً في السنّ لدرجة أنّه لم يتمكّن من تذكّر تاريخ ميلاده. كان جلده جافاً مجعّداً، وبدت قدماه كأنّهما نُحتتا من الصخر. أمّا معطفه وسرواله فبدا أنّهما يفوقانه عمراً؛ إذ كانا مليونان بالرقع، ومتدليّان على جسده كحاء شجرة معمّرة. كان يلفّ قشر الذرة ليصنع سيجاراً كبيراً يملأه بالتبغ، وكانت عيناه حمراوين من شرب الكاتشاسو؛ وهو مشروب كحولي يُصنّع من الذرة، ويُخلّف آثاراً سلبية في الجسد، حتى إنّهُ تسبّب في إصابة رجال أضعف من جدّي بالعمى.

كان جدّي يزورنا مرّة أو اثنتين في الشهر. وعندما كان يظهر من بين الأشجار مرتدياً معطفه الطويل، ومعتماً قبعته، ونافضاً الدخان الكثيف من شفّتيه، كانت الغابة أشبه برجل أطلق ساقيه للريح.

كانت القصص التي يرويها جدّي من مكان وزمان مختلفين. فحين كان صغيراً؛ أي قبل مجيء شركة الذرة والتبغ الحكومية وقطعها معظم الأشجار، كانت الغابات كثيفة لدرجة أنّ المسافر كان يضل الطريق فيها. لقد ساد هناك العالم الخفي، الذي تحالف مع الظلمة في البساتين. كانت الغابة آنذاك موطناً لكثير من الحيوانات البرية، كالظباء والفيلة، والحيوانات المفترسة، كالضباع، والأسود، والفهود، الأمر الذي جعل المكان أكثر خطراً. فقد أخبرني جدّي أنّ أسداً هاجم جدّته حينما كان صبيّاً؛ إذ كانت تعمل في الحقول عند طرف الغابة، محاولّة إبعاد بعض القرود عندما هاجمتها لبؤة على حين غرة. وما إن سمع القرويون صراخها حتى أسرعوا إلى قرع الطبول – لم يكن صوتها سريعاً متناغماً كما في حفلات الرقص أو المناسبات، بل كان بطيئاً ولا يخلو من الجدية –، وكان يُطلق على إيقاع الطوارئ هذا اسم موسادا بوي، بمعنى (احضر على عجل). إنّهُ شبيه بمكالمة الطوارئ، إلّا أنّ مَنْ يهبّ للمساعدة هم القرويون لا الشرطة.

كان الوقت قد فات حين حضر جدّي والبقية مستلّون رماحهم ومشهرون أقواسهم وسهامهم. لقد شاهدوا اللبؤة - كانت كبيرة لدرجة أنّ حجمها يماثل حجم بقرة - وهي تجرّ الجدة بين الأشجار الشائكة، وترمي جسدها في الأجمة كما لو كانت ترمي فأراً. استدارت بعدها لتواجه الجمع، مطلّقة زئيراً مخيفاً، ثمّ اختفت مع فريستها. ولسوء الطالع، لم يتمكن أحد من استعادة جثمان هذه المرأة المسكينة.

يقول جدّي: إنّ الأسد حين يتذوّق لحم البشر، فإنّه لا يتوقّف حتى يفترس قرية كلها. لذا، قاموا بإخطار السلطات البريطانية التي كانت تسيطر حينئذٍ على بلادنا. فأرسلت جنوداً إلى الغابة قاموا بدورهم باصطياد اللبؤة. ثمّ عُرضت جثتها في ميدان القرية ليراها الجميع.



جدّي يعرض قوسه وسهمه المصنوعين يدويّاً. كان يستخدمهما لقتل الأسود والوحوش البرية. يقول الناس: إنّ جدّي كان أعظم صياد في المنطقة.

بعد هذه الحادثة بوقت قصير، كان جدّي يصطاد في الغابة، فصادف رجلاً كان قد تعرّض لعضة من أفعى الكوبرا. كانت الأفعى مختبئة بين الأشجار حينما لدغت الرجل في رأسه أثناء سيره. وسرعان ما تحوّل لون جلده إلى الرمادي، ومات بعدها بدقائق. أخبر جدّي قاطني أقرب القرى إلى مكان الحادثة بما حدث، وما لبث أن وصل أهل القرية برفقة عرّافهم. قام العراف بوضع قدمه على صدر الرجل، ثمّ رشّ بعض الدواء في الغابة. بعدها بثوان، دبّت الحياة في الأرض الرطبة. في حين انسلت مئات من أفاعي الكوبرا من الظلّ وتجمّعت حول الجثة بفعل تأثير السحر.

جثم الساحر على صدر الرجل الميت، ثمّ شرب عصيدة سحرية سالت من قدميه إلى الجثة، فبدأ الرجل الميت بتحريك أصابعه، ثمّ يده، قائلاً: (ساعدوني على النهوض). ثمّ نهض وواجه جيش الأفاعي.

قام الاثنان بتفقد أنياب الأفاعي بحثاً عن تلك الأفعى التي قتلت الرجل. وقد جرت العادة أن يقوم الساحر بقطع رأس الأفعى المذبذبة بسرعة. ولكن، هذه المرة أشفق الضحية عليها ولم يقتلها.

بعد ذلك، دفعت ثلاثة جنيحات استرلينية للساحر لقاء خدماته. لقد شاهد جدّي ذلك بأمّ عينيه.

أمّا والدي فقد اعتاد - في صغره - مرافقة جدّي في رحلات الصيد. كانت الغابة خطيرة حينها لدرجة أنّ الصيادين كانوا يمارسون طقوساً دينية قبل دخولها. وكانت رحلات الصيد تبدأ بقيام رجل يُدعى مويني تشيسوكولي (يعني قائد الصيد) بدعوة الرجال الذين ينوون الصيد من القرى المجاورة. وكان هذا القائد هو الذي يُحدّد مكان الصيد وزمانه، ويختار الجزء الذي يريد من الطريدة (الجزء الخلفي منها عادة)، وكان جدي هو القائد في أغلب الأحيان.

وقد جرت العادة ألاّ يُسمح للقائد في الليلة التي تسبق الصيد بالنوم مع زوجته، ولا حتى في الغرفة نفسها؛ وذلك بهدف المحافظة على تركيزه ما أمكن، وضمان نيّله قسطاً وافراً من الراحة؛ إذ إنّ فقدان التركيز يجعل المرء غير مُبالٍ في الغابة، والأدهى من ذلك أنّه يجعلك معرّضاً للسحر. في تلك الليلة، وفي أثناء الإقامة عند الجيران أو في كوخ منفصل مع الأبناء، يغلي القائد ذرة حمراء مخلوطة بجذور معينة وأدوية، ثمّ يوزّعها بين رجاله صباحاً. كان ذلك جزءاً من السحر؛ فالجميع كان يعتقد أنّ ذلك يقيهم الأخطار.

اعتاد الصيادون أيضاً - قبل الانطلاق - إعطاء تعليمات لزوجاتهم تتصّ على عدم خروجهنّ من المنزل حتى نهاية وقت الصيد، والنوم عند أسرهنّ إن تمكّن من ذلك؛ إذ كان يُعتقد أنّ هذا الأمر يجعل الحيوانات تنام أيضاً، مما يتيح للصيادين التسلّل إليها خلسة.

عندما كنت أتجوّل الغابة وأنا صبي، لم أكن أبه كثيراً لأفاعي الكوبرا والأسود؛ لأنّ معظمها قد اختفى. ولكن، بقيت هنالك أخطار أخرى؛ إذ كانت أشباح الأشجار على طول الحقول الهادئة تبدو كأنّها تهمس إلى الحاضرين حزنها. وكان أكثر ما يخيفني عند التجوّل هناك هو غولي وامكولو.

كانت غولي وامكولو جماعة سرية من الراقصين، عُهد إليها، بناءً على طلب الزعيم، أداء طقوس خاصة في أثناء الجنازات، واحتفالات البلوغ المخصصة بفتيان تشيوا. وقد عُدَّت غولي وامكولو بمنزلة أرواح أجدادنا القدماء التي تُبعث من الآخرة لتجوب الأرض. لقد تجرّدوا من صفات البشر، واكتسوا بجلود الحيوانات، وتشبه وجوههم وحوش جهنم. لقد كانوا مثل طيور شيطانية تزقق بألم.

حينما كانت جماعة غولي وامكولو تؤدي رقصاتها، كان الجميع ينظرون من بعيد من شدة الخوف؛ فقد كانوا يظهرون من بين الأحراش وهم يمشون على قوائم خشبية طويلة، يطلّون على الحشد من علٍ، ويصرخون بلغات مختلفة. حتى إنني رأيت أحدهم مرّة يمتطي عموداً من شجر اليوكالبتوس، ورأسه متدلّ إلى الأسفل مثل العنكبوت. وحينما كانوا يرقصون، كان يُخيّل للرائي أنّ ألف رجل يسكن في جسد كلٍّ منهم؛ ألف رجل يتحرّكون في اتجاهات مختلفة.

أمّا في الأحوال العادية التي خلت من العروض، فكان أفراد هذه الجماعة يجوبون الغابات والمستنقعات، بحثاً عن الصبية الصغار لأخذهم إلى المقابر. لا أريد أن أعرف ماذا كان يحدث للمرء هناك. كان مجرّد الحديث عن غولي وامكولو يجلب النحس. و يبلغ الأمر مداه حينما يسمعونك تشكك بهم، أو تقول أشياء بحقهم، من مثل: انظر إلى أيديهم، لديهم أصابع مثلي. إنهم دجالون. إنّ فعل ذلك سيعرّضك - لا محالة - للسحر، ولن تجد - حينئذٍ - مَنْ يدافع عنك، ولا سيّما أنّ جماعة غولي وامكولو لا تصغي إلا للزعيم. وحين كانوا يظهرون في قرية ما، كان الأطفال والنساء كافة يتركون ما بأيديهم ويفرّون هاربين.

حدث ذات مرّة - عندما كنت صغيراً جداً - أن ظهر أحد الراقصين في فناء منزلنا، وهو يخال كما الديك، ويصدر فحيحاً كالأفعى. كان رأسه ملفوفاً بكيس طحين مثقوب من جهة الفم، ويخرج منه خرطوم طويل عند الأنف. كان والديّ حينها في الحقول. لذا، فقد لجأت أنا وأختي إلى الأشجار، ثم شاهدنا الشيخ العابر يسرق إحدى دجاجاتنا.

(تُعَدُّ الحمير المخلوقات الوحيدة التي لا تخاف غولي وامكولو. فحين يشاهد حمار أحد الراقصين، فإنه يطارده في الأحرش ويرفضه بقدميه القويتين. إن الحمير شجاعة، لا تسألني عن سبب ذلك).

حاولت أن أتعلّى بالشجاعة مثل صديقي الحمار كلّمًا مشيت في الغابة. لكنّ المشعوذات والسحرة لا يكشفون هويتهم أبداً. لذا، فلا أحد يعرف أماكن مصايدهم. ثم إن سحرهم الخارق يتجلّى في تلك الأماكن حيث يمارسون من الطقوس أشكالاً عدّة. يقال: إن رجلاً صلماً يظهر في الطرق خارج نتشيسي، طولهم عشرون قدماً؛ يكونون قلّة في البداية، ثمّ سرعان ما يصبح تعدادهم بالعشرات. تمرّ شاحنات أشباح الطرق هذه في الليل، تأتي مسرعة بأضوائها الساطعة ومحرّكات الهادرة. ولكن، ما إن تخفي الأضواء حتى يختفي معها كلّ أثر؛ فلا تجد آثاراً للعجلات على الطريق، وفي حال كنت تقود سيارة، فسينطفئ محرّكها حتى مطلع الفجر.

من جانب آخر، تجوب الضباع السحرية القرى في أثناء الليل؛ لتسرق بعض الماعز بما تملكه من فكّين قويين، ثمّ تضعها على أعتاب بيوت السحرة. كما تُرسل الأسود السحرية لقتل المدنيين المتهربين من الدفع، وتتبع أفاعٍ ضخمة كالشاحنات في الحقول بانتظارك.

لكنّ الخطر الذي يحيق بالأطفال أعظم؛ فكما ذكرت، يتحكّم هؤلاء السحرة في جيوش ضخمة من الأطفال الذين ينفذون أعمال السحر، ويجوسون القرى ليلاً لتجنيد مزيد منهم. يغرونهم باللحم اللذيذ، مُدّعين أنّ ذلك هو الوسيلة الوحيدة لدخول الجنة. وما إن يلتهم الأطفال قضمة لذيذة من هذا اللحم حتى يتحوّل إلى لحم بشري. ويكون الوقت قد فات حينها؛ فعندما يصبح شرّ الساحر داخلك، فإنه يتحكّم فيك إلى الأبد.

وعلاوة على إلقاء السحر واللعنات والانتقام، فإنّ المشعوذات عادة يُقاتلن بعضهنّ بعضاً؛ ما يتسبّب في فوضى كبيرة في مملكة الشيطان، ويخلّف الصراع المئات بين قتيل وجريح. لذا، يُعدّ الأطفال عناصر مثالية للعمل جنوداً.

يتجمّع الأطفال على متن طائرات المشعوذات ويجوبون السماء ليلاً، ويمكنهم السفر من زامبيا إلى لندن في دقيقة واحدة. وقد تكون طائرات المشعوذات على أيّ هيئة، من

مثل: حوض خشبي، أو قدر فخاري، أو حتى مجرد قبة. يُذكر أنّ الأطفال يُرسلون في مهام سحرية إلى منازل السحرة الأعداء بغرض اختبار مدى قوتهم، فإذا تعرّض طفل ما للقتل في أثناء العملية، يمكن للساحر - حينئذٍ - تحديد السلاح الذي استخدمه عدوه، وتطوير سلاح أقوى. وفي ليالٍ أخرى يزور الأطفال مخيمات المشعوذات الأخريات بغرض المنافسة. وفيها تُلعّب مباريات كرة قدم غامضة في حقول غامضة لم أسمع بها من قبل، ويعمد الأطفال الملعونون إلى استخدام رؤوس بشرية بوصفها كرات، ويتنافسون على كؤوس عظيمة من اللحم البشري.

بعد تخلصي من مأزق تاجر العلكة، شعرت بالخوف خشية أن يُقبض عليّ، فحاولت إيجاد طرائق لحماية نفسي. كنت أعرف أنّ المشعوذات والسحرة يعانون حساسية تجاه المال؛ لأنّ وجود النقود يعدّ شراً معادياً في نظرهم. ففي حال لمسوا النقود يختفي سحرهم ويعودون إلى هيئتهم البشرية؛ عراة بالعادة. لذا، يقوم الناس بإحاطة جدرانهم وفرشهم بنقود الكواتشا لحماية أنفسهم في أثناء الليل. وفي حال استيقظوا على وقع رجلٍ عارٍ يحاول الهرب، فإنّ شكّهم يكون في محله.

توجد طريقة أخرى لحماية النفس، تتمثل في الصلاة قبل النوم كلّ ليلة لتطهير الروح من الشرّ؛ وهو أمر قمت به أيضاً. علماً بأنّ البيوت التي تحوي أشخاصاً يصلون تكون مخفية عن طائرات المشعوذات التي تحلق في الأجواء؛ فهي لا تشاهد أيّ شيء، كأنّها تمرّ بغيمة.

رجوت والدي في ظهيرة أحد الأيام قائلاً: أبي، ضع بعض نقود الكواتشا على جدران غرفتي؛ فأنا لا أستطيع النوم ليلاً.

كان أبي يعرف كثيراً عن قضايا الشعوذة، لكنّه لم يسمح لذلك بالتأثير في حياته. وقد جعله ذلك يبدو أكثر قوّة بالنسبة إليّ، وبخاصة أنّه حرص والدتي على تنشئتنا تنشئة دينية باتباع تعاليم الكنيسة المشيخية التي كنّا نتردّد عليها باستمرار، والتي علّمتنا أن نؤمن بأنّ الربّ هو أفضل حام. وقد علّمانا أنّنا حين نفتح قلبنا للسحر، فإنّنا لن ندري ما سيدخل أيضاً. كنّا نؤمن بالشعوذة، نحترمها ونخافها، لكنّ عائلتي كانت دائماً تؤمّن بأنّ الإيمان هو مَنْ سيسود في النهاية.

كان أبي يصلح السياج المحيط بالحديقة، فأوقف ما كان يفعله، ثم التفت إليّ قائلاً: سأقص عليك قصة. كنت أعمل في التجارة عام 1979م. وفي إحدى المرات، كنت أركب في الجزء الخلفي من شاحنة متجهة إلى ليلونغوي لبيع السمك المحضف في السوق هناك. وكان معي كثير من الرجال الآخرين. فقد سائق الشاحنة السيطرة عليها فجأة، فخذفنا في الهواء. وحينما وقعنا على الأرض، شاهدنا الشاحنة تنحرف باتجاهنا مباشرة. في تلك اللحظة، قلت في نفسي: سأموت الآن لا محالة. لقد آن أواني. ولكن، قبل أن تصلني الشاحنة وتسحق جسدي كالنملة، انزلقت، ثم توقفت. كان هناك كثير من الضحايا ملقون بين العشب، لكنني لم أصب ولو بخدش».

وحيثُ، استدار نحوي ليشرح وجهة نظره، بقوله: كيف لي أن أومن بالسكر والشعوذة بعد ذلك؟ لو كنت ممن يؤمنون بالسكر لمت في أثناء انتظار من سينقذني. لقد أنقذتني قوة الرب. يا بني، احترم السحرة. ولكن، تذكر دوماً أنهم عاجزون إذا كان الرب إلى جانبك.

كنت واثقاً من كلام والدي، لكنني حرت كيف له أن ينطبق على رامبو وتشاك نوريس، اللذين كانا حاضرين في المركز التجاري ذلك الصيف، وسبباً كثيراً من الجدل. فقد ظهر هذان الرجلان في أفلام كانت تُعرض في صالة العرض المحلية، التي لم تكن سوى كوخ ذي سقف من قشّ يحتوي على مقاعد خشبية، وتلفاز صغير، وجهاز تشغيل لشرائط الفيديو. وهو ما دفع الجميع إلى تسميته بعرض الفيديو. كانت تحدث أمور رائعة وغامضة ليلاً في ذلك المكان، لكنني فوّتها جميعاً؛ لأنني كنت ممنوعاً من الخروج ليلاً. وقد عوّلت بدلاً من ذلك على القصص التي سمعتها من أصدقائي الذين يعيشون على مقربة مني وأهلهم أقلّ حزماً؛ إذ اعتاد هؤلاء الأطفال – من شاكلة بيتر كامانغا – الالتقاء بي عند مجيئي في اليوم التالي.

قال بيتر: رأيت أجمل الأفلام ليلة أمس؛ إذ قفز رامبو من على قمة جبل، وكان يُطلق النار في أثناء سقوطه حتى استقر على قدميه. لقد مات كل من واجهه، وتفجّر الجبل بأكمله. ثم قبض على رشاش وهمي، وأخذ يُطلق أعيرة نارية على طاحونة الذرة.

قلت: يا إلهي! متى سيبدأون عرض تلك الأفلام خلال النهار؟ فأنا لا أتمكّن من رؤية أيّ شيء.

كانت صفات رامبو وقوّات الدلتا تثير حيرة بعض الأشخاص الذين لم يتخيّلوا قدرة رجال على التملّص من جيوش بأكملها، وقتلهم كثيراً من الأعداء في الوقت نفسه.

كانت الليلة التي عُرض فيها فيلم (*Terminator*) صادمةً بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. وكان بيتر لا يزال ذاهلاً عندما لقيني في الصباح اللاحق؛ إذ قال: شاهدت يا ويليام فيلماً ليلة أمس ما زلت عاجزاً عن فهم كُنْه البتة. فقد تعرّض رجل لإطلاق نار في جنبه الأيسر، والأيمن، وفي بطنه، لكنّه تمكّن من البقاء حياً. ثمّ فجّر أعداؤه ذراعيه وساقيه وحتى رأسه، لكنّ عيناه بقيتا على قيد الحياة. أوكدّ لك ذلك، لا بدّ من أنّ هذا الرجل هو أعظم ساحر عرفه العالم.

بدا الأمر شائئاً، فقلت: هل تعتقد أنّ هؤلاء الأمريكيين يملكون هذا النوع من السحر؟ إنّه أمر لا يُصدّق.

هذا ما رأيته. أوكدّ لك أنّ الأمر حقيقي.

ومع أنّي سأنتظر سنوات عدّة بعدها؛ لأشاهد فيلماً في عرض الفيديو أول مرّة، إلّا أنّ الأفلام كانت تؤثر كثيراً في الألعاب التي نمارسها. كانت إحداها تُسمّى لعبة أمريكا ضد فيتنام، وهي تُلعّب بمسدسات مزيفة مصنوعة من شجيرة تُدعى مبولوني.

كنا نضع المسدسات بإزالة اللبّ من جذوع شجيرة المبولوني، على نحوٍ مماثل فكّ أجزاء قلم الحبر الجاف، ثمّ نستخدمها أداة لتلقيم وزناد. وبعد إزالة اللبّ، كنا نمضغ قطعاً من لبّ الذرة، ثمّ نضعها في الماسورة (الأنبوبة)، ونغلق عليها بأوراق ممضوغة. وعند سحب أداة التلقيم إلى الخلف، كان يتولّد ضغط كافٍ لرشّ الخصم بوابل من المخاط.

كنت قائد فريق، في حين كان ابن عمي جيفري قائد الفريق المنافس. قسمنا بعضنا، إلى جانب مجموعة من الأقارب والجيران، إلى فرق تضمّ كلّ منها خمسة أفراد، ثمّ أخذنا

نصطاد بعضنا في حقول الذرة، وعلى طول الساحة الترايبية التي تفصل بيتنا عن بيت جيفري.

وفي ظهيرة أحد الأيام، وجَّهت رفاقي قائلاً: اذهبوا يساراً وأنا سأذهب يمينا، ثمّ زحفنا على ركبتنا ومرافقنا فوق التراب الأحمر. لم نتحلّ يوماً بالنظافة.

وفي هذه الأثناء، لمحت جزءاً من سروال جيفري من على زاوية البيت، فتسلّلت في الاتجاه المعاكس من دون أن أثير هلع الدجاج، ثمّ ربضت عند الزاوية حالما أمّنت نفسي. لقد كان كميناً سهلاً.

تونغا.

حشرت أداة التلقيح في الماسورة، ثمّ أطلقت وابلأ من اللعاب الأبيض والمخاط على وجه ابن عمي، فسقط على الأرض ممسكاً قلبه.

آه، مايو ايني! لقد مت.

كان الفريق الذي يفوز أولاً يُرشَّح عادة للعب دور الجيش الأمريكي في اللعبة؛ نظراً إلى تفوّق أمريكا وهزيمتها دائماً لفيتنام في عرض الفيديو.

لقد كوّن ثلاثتنا عصابة لا يُستهان بها: أنا، وجيفري، وصديقنا جيلبرت، الذي كان والده زعيماً لمنطقة ويمبي كلها. كان الجميع يدعو والد جيلبرت الزعيم ويمبي، مع أنّ اسمه الحقيقي هو ألبرت موفات.

وعند الشعور بالملل والسأم من لعبة أمريكا ضد فيتنام، كنّا أنا وجيفري نبحث عن غجيلبرت. وكان الذهاب إلى بيته حافلاً بالأحداث دائماً، من باب أنّ أعمال الزعيم لا تنتهي. وكما هو الحال دائماً، فقد وجدنا طابوراً من سائقي الشاحنات، والبائعات، والمزارعين، والتجار ينتظرون في الخارج تحت شجر اليوكاليبتوس لبثّ مشكلاتهم وشكواهم، وكلّ منهم يحمل إمّا دجاجة تحت إبطه، وإمّا حفنة نقود في يده هديةً لقائدهم العظيم. وقد اعتاد الناس مناداة الزعيم بلقب (تشارو) عند لقائه، وهو يعني (حاكم البلاد جميعها).

قال المزارع الواقف على عتبة الباب: أودي أودي، بمعنى مرحباً، أيمكنني الدخول؟

وقف السيد نفواتا، مراسل الزعيم وحارسه الشخصي عند الباب، مرتدياً سرواله القصير وجزمته العسكرية، في هيئة شبيهة برجل الشرطة. وقد تمتلّت وظيفة السيد نفواتا في حماية الزعيم، وتصنيف الزوّار، فضلاً على مهمة جمع الدجاج.

قال لنا: هيّا ادخلوا.

جلس الزعيم على كنية، مرتدياً قميصاً مجعداً وسروالاً جميلاً؛ وذلك خلافاً لما يرتديه رجال الأعمال، الذين يأنفون من لبس الجلد والريش (يحدث ذلك في الأفلام فقط). كان الزعيم ويمبي يحب قطته التي يخالط البياض والسواد جسدها، والتي لم يكن لها اسم؛ فني مالاوي، الكلاب وحدها تُمنح أسماء، لا أعرف السبب في ذلك. كانت القطّة تجلس دائماً في حضن الزعيم، وكانت تموء باستمرار، في حين يداعب تشارو رقبتها.

تشارو، تشارو، قالها المزارع وهو منحني على ركبته، ومصفقّ علامةً على تقديم الاحترام، لدينا مشكلة تتطلّب تدخلك. ابن أخي اعتدى على الأرض التي وهبتي إياها قبل خمسة عشر عاماً. أريد مساعدتك حقناً للدماء.

أجاب الزعيم: حسناً، دعني أفكر في الأمر، وأقوم ببعض التقصي. عُد إليّ يوم الأحد، وسأكون قد عثرت لك على حلّ ما.

حسناً، زيكوهو كوامبيري، تشارو. كلّ الشكر والاحترام لك.

انتظرنا إلى حين غادر المزارع، ثمّ خاطبنا السيد نجواتا، قائلين: أتينا لرؤية غلبيرت، قلناها في أثناء ولوجنا الباب.

همم.

كان غلبيرت في غرفته يُغني أثناء الاستماع لشريط بيلي كاوند الذي اختير مؤخراً بوصفه أفضل موسيقار في مالاوي هذا العام. كان غلبيرت يُغني بصوت جميل على الرغم

من أنه كان ما يزال صغيراً، الأمر الذي سيساعده على تسجيل ألبومين لاحقاً في البنتير. كان صوتي أشبه بصوت دجاجة حبشية تتغوَّط على شجرة، لكنني لم أدع ذلك يؤثّر فيّ.

– غلبيرت، بو.

– بو.

– حاد؟

– حاد!.

كانت تلك لغتنا الدارجة، وقد حرصنا على استخدامها كلّمنا التقينا. وكلمة «بو» هي اختصار لكلمة «بونجور»؛ أي طاب يومك، وقد بدأ استخدامها من باب التباهي وتقليد بعض الغلمان الذين يتعلّمون الفرنسية في المدرسة الإعدادية. لا أعرف مصدر كلمة «حاد»، لكنّها كانت طريقتنا في طرح السؤال الآتي: هل أنت على ما يرام؟. وفي حال كانت الأمور تسير على يرام، يمكنك الذهاب إلى أبعد من ذلك بقول:

– متأكّد؟

– متأكّد!.

– تمام؟

– تمام!.

– آه.

قلت: لنذهب إلى التجاري، وأقصد هنا المركز التجاري. فقد سمعت أنّ السكاري أراقوا في الأوفيسي ليلة أمس.

كنت أشير هنا إلى مركز أوفيسي للخمر، وهو مكان ممنوع؛ ما جعل الأنظار تتطلّع إليه. يقع أوفيسي على مشارف المركز التجاري، وكان أحد أواخر المتاجر التي ما زالت

هناك قبل شقّ الطريق الموصل إلى بلدة تشاماما. كانت الموسيقى الصاخبة تُسمَع من ردهات المكان حتى ساعة الظهر. وهناك، كان يظهر عند الباب رجال بعيون مضطربة، يدخلون السجائر، ثم يرمون عبوات خمر من الكرتون الفارغ لتتكوّم مع مثيلاتها في التراب. في حين كان معظم الناس يرون تلك العبوات نفايةً، كنّا نَعُدُّها كنزاً وفرصاً سانحة للكسب.

وعلى الرغم من ترعرعنا (أنا وجيفري وغلبيرت) في مكان صغير بإفريقيا، فإنّ ما كنّا نفعله كان مشابهاً لما يفعله الأطفال في مختلف أنحاء العالم، مع فارق بسيط يتمثّل في فعله بمواد مختلفة قليلاً. وأعرف الآن من أصدقائي الأمريكيين والأوروبيين أنّ ذلك صحيح. يستخدم الأطفال في كلّ مكان الأساليب نفسها لتسلية أنفسهم؛ فإذا نظرت إلى الأمر بتلك الطريقة، ستكتشف أنّ العالم ليس كبيراً كما تظن.

كنّا نحب الشاحنات بصرف النظر عن أنواعها؛ الكبيرة ذات الأطنان الأربعة التي كانت تهدر في الأنحاء مثيرّة الغبار، أو الصغيرة ذات نصف الطن كالتي تدرع طريق بلدة كاسونجو جيئةً وذهاباً في ساعة، وينحشر في جزئها الخلفي الركّاب كأنّهم في قفص مليء بالدجاج. لقد أحببنا الشاحنات حقّاً. لذا، كنّا نتنافس أسبوعياً على بناء أكبر الشاحنات وأقواها. وفي المقابل، فقد حظي أصدقائي الأمريكيون برفاهية الحصول على شاحنات صغيرة مجمّعة، بشرائها من أيّ مجمع تجاري. أمّا نحن فكان علينا بناؤها بأنفسنا من الأسلاك وعبوات الكرتون الفارغة تلك. ومع ذلك، فقد كانت شاحناتنا جميلة كشاحناتهم.

كانت تلك العبوات الفارغة التي يلقيها السكارى في أوفيسي تحتوي أحياناً على تشيبوكو شيك شيك، وهو نوع رائج في مالوي من الجعة، يُصنَع بتخمير الذرة. كان طعمه مُرّاً، ويحتوي على قطع من الذرة المستقرة في القعر، الأمر الذي يتطلّب رجّ العبوة قبل شربها والاستمتاع بمذاقها، ومن هنا جاء سبب تسميتها. إنَّها مغذية في الواقع، صدّقتم الأمر أم لا. أنا عن نفسي لا أتعاطى الكحول، لكنّني سمعت أنّ على المرء شرب بضع عبوات من شيك شيك ليصل إلى حدّ الثمالة. لذا، كان الرجال في أوفيسي يشربون قدر المستطاع قبل أن يرموا العبوات على قارعة الطريق.

كانت تلك العبوات مثالية لصنع هيكل لعبة الشاحنة حال غسلها من بقايا الخمر. وقد استعملنا أغطية زجاجات الجعة عجلات، كما كنّا نستخدمها للعدّ في المدرسة (ثلاثة أغطية من مشروب كوكا كولا زائد عشرة أغطية كارلسبيرغ يساوي ثلاثة عشر).

قطفنا المانجو من شجر الجيران، ثمّ بادلناها ببعض الأسلاك التي استخدمناها في صنع المحاور وتثبيت العجلات المصنوعة من أغطية الزجاجات. وقد اكتشفنا - فيما بعد - أنّ أغطية زجاجات زيت الطبخ تصلح لاستخدامها عجلات على نحو أفضل من غيرها، وهو أمر يجعل الشاحنات تدوم مدة أطول. واستخدمنا شفرات الحلاقة التي يستعملها آباؤنا لقص نماذج بلاستيكية، وإعطاء كلّ شاحنة علامتها التجارية المميّزة. وبذلك، أصبحنا قادرين عند رؤية آثار العجلات على الأرض، على معرفة أكانت الشاحنة تابعة لأسطول كامكوامبا تويوتا العظيم، أم لشركة جليبيرت المحدودة؟.

بعد ذلك، بدأنا ببناء عربات كبيرة مخصصة بنا تُسمّى تشي غيري غيري، وهي تشبه عربات السباق المستخدمة في أمريكا. كانت الهياكل تُصنَع من غصون أشجار غليظة مشعبة من أحد الطرفين، وتتسع لشخص يجلس على نقطة الالتقاء. بعدئذٍ، حفرنا لنستخرج جذوراً كبيرة درنية مستديرة تُدعى كاومبو، ثمّ حفرناها على شكل عجلات، واستخدمنا أعمدة من شجر اليوكالبتوس بوصفها محاور، ثمّ ألصقنا القطع المرتخية بعضها ببعض بواسطة لحاء الشجر أو الكرملة.

كان أحدها يتولّى سحب العرى بحبل، في حين يوجّه السائق العربة بقدميه. كنّا نقيم سباقات من سيارتين بحيث تتجهان إلى أسفل الطريق الترابي.

- لنتسابق.

- أكيد.

- آخر الواصلين إلى محلّ إيبونغا سيصاب بالعمى!.

- انطلق.

كان محلّ إيبونغا للحلاقة هو الأول من نوعه في المركز التجاري بويمبي، والمكان الذي اعتدت حلق شعري فيه طوال عمري. فقد كان والدي يصحبني إلى هناك كل شهر، حيث يلبسني السيد إيبونغا خرقة ممزقة، ثم يخاطبني قائلاً: كيف تريد قصتك؟.

عُلِّقت على الجدران صور لرجال بقصات شعر مختلفة، مثل قصة تايسون التي سُمِّيت بذلك تيمناً بالملاكم الأمريكي المشهور، إضافة إلى القصتين: الإنجليزية، والنيجيرية، وقصة بوذا. وهذه الأخيرة تُظهِر المرء أصلع تماماً. كنت أختار عادة قصة المكتب التي تعني أنّ طول شعري سيكون كأسنان المشط من دون أيّ أهداب. أعتقد أنّها كانت أرخص القصات سعراً أيضاً.

كانت مشكلة قص الشعر في المركز التجاري تتعلق، حتماً، بالانقطاع المتكرّر للتيار الكهربائي الذي اجتاح البلاد. وكان حدوث مثل هذا الانقطاع في أثناء قيام إيبونغا بقص شعرك بالمكينة الكهربائية أمراً عادياً.

يا للهول، لقد قُطعت الكهرباء. عُدُّ بعد ساعات عدّة.

ولكن....

إنّ جلب قبعة، أو الذهاب للحلاقة في أثناء الليل يمثّلان فكرة جيدة، بحيث يمكنك التسلّل إلى بيتك تحت جناح الظلام، والعودة في الصباح اللاحق لإكمال ما بدأته.

وفي حال حصلنا على بعض الفكّة من أهلنا، فقد كنّا نخرج على متجر السيد باندا لشراء زجاجة فانتا باردة، أو حفنة من حلوى داندي التي كان باندا يحتفظ بها في جرّة تحت رفوف ملح التسهيل (ماركة أندروز)، وحبوب علاج السعال (ماركة كون جيكس)، ومستحضرات الترطيب (ماركة توب سوسيتي لوجييري)، وصبغة الشعر (ماركة إيزي بلاك)، وحزم السمّنة (ماركة بلو باندا)، وقطع الصابون (ماركة لايف بوي)، والحليب الجاف (ماركة كاوبل).

أمّا إذا كنّا جائعين، فنجمع النقود التي بحوزتنا، ثمّ نتجه صوب كشك كان ينيّا، الذي كان في الواقع قدر ضخمة تحوي جهناً يغلي على النار، قرب مركز الخمور. كنّا نشترى من

هناك قطعاً لذيذة من لحم الماعز المقلي والبطاطا المقلية لقاء بعض من الكواتشا. صرخ الرجل الذي يتولّى القدر، قائلاً: بكم ٩. وهنا، يتعيّن على الطالب أن يجيب: خمس كواتشات. وحينئذٍ، يقطع البائع جزءاً كبيراً من الذبيحة التي تتدلّى من الخطّاف، في حين بيتعد سرب من الذباب الأسود عنها ليعود ويحط عليها بعد ذلك. أسقط البائع اللحم في الزيت، وأضاف بعض الحطب إلى النار لغليه، ثمّ رمى بعض رقائق البطاطا. وحين نضج كلّ شيء، رماه على النضد، ثمّ وضع كومة من الملح لغرض التغميس.

قال جليبرت: أمك طبّاخة ماهرة. ولكن، حتى هي تعجز عن صنع شيء بهذه اللذة.

لا فضّ فوك.

ولما كان الإفلاس سيد الموقف في معظم الأحيان، فقد كنّا نقضي وقت الظهيرة ونحن نصارع الجوع، ونمّني أنفسنا ببعض الأحلام. وقد اعتدنا في أثناء العودة إلى البيت، لعب لعبة معينة باستخدام شجيرات تُدعى مفاغالا. كانت أزهارها الحُمر الفاقعة بديلاً مناسباً (للأطفال) عن أقلام التلوين، وكانت سيقانها تُخبّر بالطالع أيضاً. وكان يتعيّن على أحدا اجتثاث الساق، ثمّ محاولة فصلها من الوسط بالسحب. وفي حال نجحت في عمل ذلك من دون كسر الساق إلى نصفين، فهذا يعني أنّ هنالك لحماً في البيت ينتظرك على العشاء.

يا لك من محظوظ. دعني أحضر إلى بيتكم!.

ولكن، إذا كسرت الساق، فتلك قصة مختلفة.

أسف يا صديقي، والدتك في جنازة. لن تجد في البيت سوى الماء. ها ها!.

كان وقت المساء في القرية هو أفضل الأوقات بالنسبة إليّ، وذلك حين تختفي أشعة الشمس خلف شجر اليوكالبتوس. وهو الوقت الذي يفرغ فيه والدي والعم جون (والد جيفري) من العمل في حقول الذرة والتبغ، ويعودان إلى البيت لتناول طعام العشاء. في تلك الأثناء، تنهمك والدي وشقيقتي الكبرى آني في تحضير الطعام بالمطبخ، مرسلتين مختلف أنواع الروائح الشهية مع النسيم. يُذكر أنّ أبناء العمومة جميعهم كانوا يتجمّعون

في الساحة التي تفصل منزلي عن منزل جيفري للعب كرة القدم (كانت تُصنَع من أكياس التسوّق البلاستيكية التي نُسمّيها جومبوز، والتي يُربط بعضها ببعض بخيط رفيع). وقد يحدث أيضاً أن يتوقّف

مزارع من القرية المجاورة مع هبوط الظلام، ليقول شيئاً ما، مثل: سيد كامكوامبا، لديّ شيء ما زرعته في حديقتي، ثمّ يفتح حزمة من الورق لتظهر بعض شتلات الطماطم الجيدة. وفي حال تفاوضا على السعر واتفقا، فإنّ والدي يزرعها خلف منزلنا.

عندما كان ثمر المانجو ينضج في موسم المطر، كنّا نجتمع كُوماً منه، من على أشجار الجيران، ثمّ ننقعه في الماء في أثناء تناول طعام العشاء. بعدئذٍ، كنّا نمرّر الفاكهة بيننا؛ نفرز أسناننا بالفاكهة الغضة ليسيل العصير اللذيذ من بين أصابعنا. وفي حال لم نتمكّن من اللعب بسبب غياب ضوء القمر، كان والدي يجمع الأطفال كافة في غرفة المعيشة، ويضيء مصباحاً يعمل بالبنزين، ثمّ يروي لنا بعض القصص الشعبية.

كان يقول: اجلسوا وأهدؤوا هل رويت لكم قصة الفهد والأسد؟

قُصّها علينا مرّة أخرى يا أبي!

حسناً... في أحد أيام قديم الزمان، كانت هنالك فتاتان ذاهبتان من كاسونغو إلى ويمبي. وقد بلغ التعب منهما حدّه، ولم تعودا قادرتين على الاستمرار.

جلسنا على الأرض ضامّين ركبنا إلى صدورنا، مُنصتين إلى كلّ كلمة. كان أبي يعرف كثيراً من القصص، وكانت قصة الفهد والأسد إحدى تلك القصص المفضّلة لديّ. وهذه أحداثها:

بدل أن تأخذ الفتاتان قيلولته على الأرض، فتشتتا عن مكان هادئٍ لطيف. وبعد هنيهة، صادفتا منزلاً يسكنه رجل عجوز، فسألته البقاء عنده، فردّ قائلاً: يمكنكما البقاء. تفضّلاً بالدخول.

وسرعان ما غطت الفتاتان في نوم عميق تلك الليلة، فانسلَّ العجوز من الباب، ومضى في الغابة المظلمة. وهناك وجد اثنتين من أعزَّ أصدقائه؛ الفهد، والأسد.

صديقي، لديّ طعام شهّي لكما. ما عليكما سوى أن تتبعاني.

قال الفهد: شكراً أيّها العجوز؛ سنأتي في الحال.

قاد العجوز صديقيه في طرق الغابة المتشعبة، متجهاً صوب منزله. كان الفهد والأسد متحمسين لتناول الوجبة، حتى إنهما بدأا يغنيان بسعادة. ولكن، قبل أن يصل الجميع، حدث أن استيقظت الفتاتان؛ فقد شعرتا بالنشاط بعد القيلولة، وقررتا المضي قُدماً في رحلتها. لأنهما لم يجدا الرجل العجوز، فقد تركتا ملاحظة تشكرانه فيها على السرير.

وصل العجوز أخيراً إلى المنزل برفقة الفهد والأسد، وقبل أن يهَمَّ بالدخول، قال لهما: انتظرا هنا، سأذهب وأحضرهما.

وجد العجوز السرير خالياً، فسأل نفسه: أين ذهبتا؟ بحث عن الفتاتين لكنّه لم يجدهما، بل وجد الملاحظة - في نهاية المطاف -، فعرف أنّهما غادرتا. وفي هذه الأثناء، كان الفهد والأسد في الخارج ينتظران بفارغ الصبر.

قال الفهد: أنت، أين طعامنا؟ ألا ترى لعابنا يسيل؟

قال الرجل بصوت عالٍ: صبراً، إنهما هنا في مكان ما. دعاني أجدهما.

أيقن العجوز أنّه في حال اكتشاف الفهد والأسد أنّ الفتاتين غادرتا، فسيصبح هو العشاء. كان العجوز يحتفظ بيقطينة ضخمة في زاوية المنزل يستعملها لحفظ ماء الشرب. فلم يجد خياراً سوى القفز داخلها للاختباء.

وبعد طول انتظار، قال الأسد: لقد عيل صبري، سأدخل، فقاما

بكسر الباب، لكنهما وجدا المنزل خالياً؛ دون فتاتين، ولا عجوز، ولا عشاء.

قال الفهد: يبدو أنّ العجوز قد خدعنا، حتى إنّه غادر هو الآخر.

عندئذٍ، لمح الفهد طرف قميص الرجل العجوز يتدلّى من اليقطينة، فأشار إلى الأسد،  
وقام الاثنان بشدّ اليقطينة مراراً حتى خرج منها العجوز.

صرخ العجوز: لا، أرجوكما، أتركاني أشرح لكما ما حدث. لكنّ الفهد والأسد لم يصبرا  
حتى يسمعا القصة كاملة، فأكلاه من فورهما.

صَفَّقَ والدي بيديه علامةً على انتهاء القصة، ثمّ جال بنظره بين الأطفال، قائلاً: إذا  
حضرت حضرة لأصدقائك، فحذارٍ؛ فقد تقع أنت فيها. يجب أن تكون نيتك صافية تجاه  
الآخرين على الدوام.

صرخنا قائلين: قُصِّ لنا قصة أخرى يا أبي.

ممم، حسناً... ما رأيكم في قصة الأفعى والدجاجة الحبشية؟

نعم!.

كان أبي في بعض الأحيان ينسى أحداث القصة من منتصفها، فيصطنع أحداثاً  
جديدة. وقد يحدث أحياناً أن تمتد هذه القصص ساعة، وأن تتغيّر الشخصيات والدوافع.  
لكنّه كان يتمكّن دائماً من إنهاء القصص على نحو نفسه مستخدماً أسلوبه السحري. إنّ  
والدي حكواتي بالفطرة؛ ومردّد ذلك أساساً هو حياته الشخصية التي تمثّل قصة رائعة.

